مجلة تسليم
Journal Homepage: https://tasleem.alameedcenter.iq
ISSN: 2413-9173 (Print) ISSN 2521-3954 (Online)

سُلْطَةُ الحُجَّةِ فِي خِطَابِ الإِمامِ الصَّادِقِ عليه السلام
مُقَارَبَةٌ تَدَاوُلِيَّةٌ حِجَاجِيَّةٌ

راما عبد العزيز محمد صليبي [1]
[1] جامعة حماه/ كلية التربية/ قسم اللُّغة العربيَّة، سوريا؛
fa8288425@gmail.com
دكتوراه في اللُّغة العربيَّة / مدرس

تاريخ التسلّم	تاريخ القبول	تاريخ النشر
٢٠٢٥/٦/١٦	٢٠٢٥/٧/٢٦	٢٠٢٦/٦/٣٠

المُجَلَّدُ (٢٦) العَدَدُ (٣٨)
مُحَرَّم ١٤٤٨هـ . حزيران ٢٠٢٦م
DOI: 10.55568/t.v26i38.123-146

مُلَخَّصُ البحْث:

تتناول هذه الدراسة سلطة الحُجَّة في خطاب الإمام الصادق عليه السلام من خلال مقاربة تداوليَّة – حجاجيَّة تكشف عن عمق المنظومة المعرفيَّة لهذا الخطاب وفاعليته في إدارة الحوار العقليِّ والدينيِّ، وتُطبَّق الدراسة المفاهيم التداوليَّة على خمس نماذج، تتوزَّع بين المقامات التعليميَّة، والجدليَّة، وتفنيد الشبهات، وتكشف النماذج التحليليَّة عن تعدُّد آليَّات الحُجَّة، ومن بينها البرهان العقليُّ الفطريُّ، والتفنيد الاستبطانيُّ، والتمثيل التداوليُّ، والسؤال المعكوس، والاستفهام الإلزاميُّ، والحُجَّة الوقائيَّة التعليميَّة، والنفيُّ العقليُّ للمحال، ويُظهر الإمام عليه السلام من خلال هذه الآليَّات قدرة حجاجيَّة فريدة تنطلق من احترام المتلقِّي، وتُراهن على الوعي الداخليِّ، وتحيل إلى نظام إدراكيٍّ يتدرَّج من الحسِّ إلى العقل إلى القلب، في انسجام تامٍّ مع مقامات المخاطَبين، وتخلص الدراسة إلى أنَّ الحُجَّة في خطاب الإمام عليه السلام منظومة عقليَّة تربويَّة تُعيد تشكيل الوعيّ ضمن رؤية معرفيَّة وأخلاقيَّة تُعلي من شأن العقل الفاعل في إدراك الحقيقة.

الكلمات المفتاحية: الإمام الصادق عليه السلام، سلطة الحُجَّة، الخطاب الحجاجيّ، العقل الفطريّ، الأسئلة الإلزاميَّة، التربية الفكريَّة، المناظرة العقديَّة.

Authority of Argument in Imam Al-Sadiq Discourse: A Pragmatic-Argumentative Approach

Rama Abdul Aziz Mohammed Salib [1]

[1] University of Hama /Faculty of Education / Department of Arabic, Syria;
fa8288425@gmail.com
PhD. in Arabic Language/ Lecturer

Received:	Accepted:	Published:
16/6/2025	26/7/2025	30/6/2026

DOI: 10.55568/t.v26i38.123-146 Volume (**26**) Issue (**38**) Vol.26, Issue No. 38 Muharram, 1448 AH / June, 2026 AD

Abstract:

This study examines the authority of argument in Imam Al-Sadiq's (P.B.U.H) discourse through a pragmatic-argumentative approach that unveils the depth of this discourse's epistemic structure and its efficacy in managing rational and religious dialogue. The study applies pragmatic concepts to five models distributed across pedagogical, dialectical, and refutational contexts. The analytical models reveal a multiplicity of argumentative mechanisms, among them: innate rational demonstration, introspective refutation, pragmatic analogy, the reversed question, the obligatory interrogative, the preventive pedagogical argument, and rational negation of the impossible. Through these mechanisms, the Imam demonstrates a distinctive argumentative capacity rooted in respect for the recipient, depending on inner consciousness, and referring to a cognitive system that advances progressively from sense to reason to heart , in a complete harmony with the interlocutors' contexts.

The study concludes that argument in the Imam's discourse constitutes a rational-educational system that reshapes consciousness in a cognitive and ethical vision that elevates the role of active reason in perceiving truth.

Keywords: Imam Al-Sadiq (P.B.U.H), Authority of Argument, Argumentative Discourse, Innate Reason, Obligatory Questions, Intellectual Education, Doctrinal Debate

١ – المقدِّمة:

يُعدُّ خطاب الإمام الصادق ﷺ من أبرز المحطَّات الفكريَّة في التاريخ الإسلاميِّ، إذ تميَّز هذا الخطاب بقدرته الفائقة على معالجة القضايا العقديَّة والمعرفيَّة في سياقات جدليَّة بالغة التعقيد، سواء في مواجهة التيارات الكلاميَّة والفلسفيَّة المختلفة، أم في بناء الوعي الدينيِّ المتماسك لدى جمهور الأمَّة.

فقد جاء خطاب الإمام ﷺ في زمن تميَّز بتعدُّد المرجعيَّات الفكريَّة، وتنوُّع المخاطَبين بين ملاحدة وزنادقة وأهل كلام وفلاسفة وتلامذة علم، وهو ما استلزم منه توظيف خطاب حجاجيٍّ رفيع المستوى يجمع بين الدقَّة المعرفيَّة والمرونة التداوليَّة في آن، وخطابُ الإمام الصادق ﷺ ليس مجرَّد استجابات ظرفيَّة أو ردود فعل آنيَّة على الشبهات، إذ إنَّه مارس وظيفة تأسيسيَّة لتثبيت أركان العقيدة وتحصين المتلقِّين ضد المغالطات والمزالق الفكريَّة، وقد شكَّل خطاب الإمام الصادق ﷺ حجر الزاوية في ترسيخ العقيدة الإسلاميَّة، فكان "أداة فعَّالة في مواجهة الشبهات وتثبيت المبادئ العقائديَّة، مستنداً في ذلك إلى حُججه العقليَّة والأخلاقيَّة"[١]، أي إنَّ خطابه خطابٌ معرفيٌّ شامل يتجاوز الأطر الجدليَّة التقليديَّة إلى مشروع تربويٍّ منهجيٍّ يُرسِي معايير التفكير النقديِّ المنضبط.

وعلى الرغم من كثرة الدراسات التي تناولت سيرة الإمام الصادق ﷺ وعلومه، إلا أنَّ مقاربة خطابه من زاوية سلطة الحُجَّة بوصفها ظاهرة تداوليَّة حجاجيَّة لا تزال محدودة في البحث العربيِّ والإسلاميِّ، ومن هنا تنشأ إشكاليَّة البحث في تساؤله المركزيِّ: كيف مارس الإمام الصادق ﷺ سلطة الحُجَّة في خطابه الحواريِّ؟ وما الآليَّات التداوليَّة الحجاجيَّة التي فعّلها في تثبيت المفاهيم العقديَّة وبناء الوعي النقديِّ لدى المخاطب؟

---

١ المظفر, محمد حسين. الإمام الصادق ﷺ، ج١, ط١ (بيروت–لبنان: مؤسسة النشر الإسلامي, ١٩٩٦), ١٥٢.

ويسعى هذا البحث إلى استكشاف آليَّات الحُجَّة وسلطتها في خطاب الإمام الصادق ﷺ، من خلال مقاربة تداوليَّة حجاجيَّة تكشف البنية العميقة التي تنتظم هذا الخطاب، إذ لا تقتصر سلطة الحُجَّة عند الإمام ﷺ على مجرَّد استعراض الأدلَّة العقليَّة أو النقليَّة، بل تنبني على وعي دقيق بالسياقات التداوليَّة التي تحيط بالخطاب، فتنتج تفاعلاً مع المتلقِّي يحفِّزه على إعادة بناء قناعاته من الداخل عبر مواجهة منطقه الذاتيِّ وتناقضاته الفكريَّة.

وإنَّ جوهر البحث ينصبُّ على إبراز الكيفيَّة التي يُفعِّل بها الإمام ﷺ أدوات الحُجَّة لإحداث تحوُّل معرفيٍّ داخليٍّ لدى المخاطَب، بعيداً عن منطق الإلزام القهريِّ أو الجدل الاستعراضيِّ، ولتحقيق هذا الهدف العلميِّ، اعتمد البحث منهجًا تحليليًّا يقوم على تحليل نصوص حواريَّة مختارة من مناظرات الإمام الصادق ﷺ، مستعملًا أدوات التحليل الحجاجيِّ والتداوليِّ لرصد تحوُّلات الحُجَّة ضمن سياقاتها التفاعليَّة المختلفة.

وقد تمَّ اختيار النصوص بعناية، بحيث تُمثِّل أنماطًا متنوِّعة من المواقف الحجاجيَّة التي واجهها الإمام ﷺ في تعامله مع تيارات فكريَّة متعدِّدة، وتسمح برسم صورة شاملة لآليَّات الحُجَّة في خطابه، ومن خلال هذه المقاربة يسعى البحث إلى تقديم قراءة نقديَّة تتجاوز الاقتصار على وصف مضمون الخطاب، وتحلِّل البنية الحجاجيَّة التي تشكِّل مركز ثقله المعرفيِّ والجدليِّ، فخطاب الإمام الصادق ﷺ هو منظومة معرفيَّة تتداخل فيها عناصر الحُجَّة والعقل والأخلاق والمقام التداوليِّ في توازن دقيق يعكس عمق المشروع الفكريِّ لمدرسة أهل البيت ﷺ.

٢- الإطار النظريّ:

أ- تعريف الحجَّة الحجاج:

ارتبطت لفظة (الحجاج) في المعاجم والقواميس العربيَّة بالجذر اللغوي (ح،ج،ج) الذي يحيل إلى دلالات متعدِّدة، ففي لسان العرب "حجج: الحَجُّ: القصدُ، حَجَّ إلينا فلانٌ أَي قَدِمَ؛ وحَجَّه يَحُجُّه حَجًّا: قَصَدَهُ. وحَجَجْتُ فُلَانًا واعتَمَدْتُه أَي قَصَدْتُهُ، ورجلٌ محجوجٌ أَي مَقْصُودٌ... ويُقَالُ: حاجَجْتُه أُحاجُّه حِجاجًا ومُحاجَّةً حَتَّى حَجَجْتُه أَي غَلَبْتُه بالحُجَجِ الَّتِي أَدْلَيْتُ بها"[٢] فثمَّة معانٍ متعدِّدة تدور في مجملها حول القصد والاتِّجاه نحو الغاية، ثم يتّسع المعنى ليشمل فعلَ المحاجَّة والمجادلة بغرض الغلبة بالحجَّة والدليل، فالحجاج حركة قصديَّة واعية نحو إقناع الآخر أو التغلُّب عليه عبر قوَّة البرهان، والمحاجَّة فعل يتضمَّن القصديَّة، أي إنَّ الحجاج فعل موجَّه، فيه تعمُّدٌ للقول والسعي نحو هدف معرفيٍّ أو جدليٍّ، ويتضمَّن التمكين بالحجَّة، فالنتيجة المرجوة هي إثبات صحَّة الرأي عبر تقديم أدلَّة وبراهين أقوى من حجَّة الخصم.

ويعرف الحجاج بأنَّه "الخطاب الصريح أو الضمنيِّ الذي يستهدف الإقناع والإفهام معاً"[٣]، فالحجاج بوصفه خطابًا يهدف إلى تحقيق غايتين متلازمتين، وهما الإقناع والإفهام، فهو لا يقتصر على مجرَّد الإقناع الذي يستهدف التأثير في الموقف أو السلوك، إنَّما يتجاوز ذلك ليشمل الإفهام، أي توصيل المعنى والفكرة بوضوح إلى ذهن المتلقِّي، وهذه الثنائيَّة تعبِّر عن التوازن بين البعد العقليِّ ويقصد به الفهم، والبعد النفسيِّ أو البلاغيِّ ويقصد به الإقناع، والحجاج قد يكون صريحًا أو ضمنيًّا، أي إنَّه لا يشترط دائمًا أن تظهر نواياه الحجاجيَّة بشكل مباشر؛ فقد يُمارس الحجاج من خلال التلميح، والافتراضات، والمضمرات النّصِّيَّة التي تنقل الرسالة بطريقة

٢ ابن منظور, لسان العرب, ط٣ (بيروت: دار صادر, ١٤١٤هـ), مادة(حجج).
٣ حبيب أعراب, "الحجاج والاستدلال الحجاجي," عالم الفكر, المجلد٣٠, العدد١٩٩ : (٢٠٠١).

غير مباشرة، وهو ما ينسجم مع النظرة التداوليَّة الحديثة التي ترى أنَّ كثيرًا من الحجاج يتمُّ عبر آليَّات خفيَّة كالإيحاء، والتضمين، وملء الفجوات، ويعرف أيضًا بأنَّه "توجيه خطاب إلى متلقٍّ ما لأجل تعديل رأيه أو سلوكه أو موقفه"[٤]، فيُنظر إلى الحجاج بوصفه عمليَّة تواصليَّة مقصودة تستهدف تغيير حالة المتلقِّي، سواء على مستوى القناعة أم التصرُّف أم الاصطفاف الفكريّ، وبهذا المعنى، يتجاوز الحجاج الوظيفة الإخباريَّة أو الوصفيَّة البسيطة، ليدخل في صلب الوظائف التداوليَّة للخطاب، إذ يتحرَّك المتكلِّم في مساحة التأثير النفسيِّ والعقليِّ على المتلقِّي عبر إستراتيجيَّات متعدِّدة من البرهنة، والتمثيل، والمقارنة، والتفنيد، وغيرها.

وثمَّة من عرَّف الحجاج تعريفًا دقيقًا من منظور لسانيّ – تداوليّ، فهو "تقديم الحجج والأدلَّة المؤدِّية إلى نتيجة معيَّنة، وهو يتمثَّل في إنجاز تسلسلات استنتاجيَّة داخل الخطاب وبعبارة أخرى، يتمثَّل الحجاج في إنجاز متواليات من الأقوال، بعضها هو بمنزلة الحجج اللُّغويَّة، وبعضها الآخر هو بمنزلة النتائج التي تستنج منها"[٥]، فالحجاج عمليَّة موجَّهة نحو غاية، أي إنَّه يُفهم بوصفه فعلًا مقصودًا يهدف إلى تغيير موقف المتلقِّي أو ترسيخ قناعة، ويلتقي الحجاج مع منطق الاستدلال، لكنَّه في الوقت نفسه يختلف عنه من حيث كونه لا يُقاس دائمًا بصحَّة الشكل المنطقيِّ، بل بفاعليته التداوليَّة داخل السياق.

والحجَّة في لسان العرب هي "البُرْهان؛ وَقِيلَ: الحُجَّة مَا دُوفِعَ بِهِ الْخَصْمُ...، وَهُوَ رَجُلٌ مِحْجاجٌ أَي جَدِلٌ. والتَّحاجُّ: التَّخاصُم...؛ وحاجَّه مُحاجَّةً وحِجاجاً: نَازَعَهُ الحُجَّةَ. وحَجَّه يَحُجُّه حَجّاً: غَلَبَهُ عَلَى حُجَّتِه... واحْتَجَّ بالشيءِ: اتَّخَذَهُ حُجَّة؛ قَالَ

٤ مهاوي, محمد حدين. قراءة في خطاب الرئيسين "المالكي والعبادي" (كُليَّة الإمام الكاظم ﷺ للعلوم الإسلاميَّة الجامعة, د.ت.), ٧.

٥ الحنوش, أنوار إبراهيم عزيز. "الحِجاج: بين الأسس الأرسطية والمنطلقات الغربية," المجلة العربية للعلوم الإنسانية, ٢٠٢٥, ٩٨.

الأَزهـريُّ: إِنَّـما سُـمِّيَتْ حُجَّـة لأَنَّهـا تُحَـجُّ أَي تقتصـد لأَنَّ الْقَصْـدَ لَهَـا وإِليهـا"[٦]، فالحجَّـة لغويًّـا تتداخـل فيهـا المسـتويات المعرفيَّـة والجدليَّـة والتداوليَّـة، فهـي البرهـان والدليـل الـذي يُعتمـد عليـه في إثبـات الحقائـق، وهـذا هـو الأصـل الأوَّل في كلِّ عمليَّـة اسـتدلال أو محاجَّـة، وهـي أداة مواجهـة مـع الخصـم في مقـام الجـدال والمناظـرة، وتتضمَّـن توجيـه الخطـاب نحـو غايـة محـدَّدة عـبر وسـائل عقليَّـة مقصـودة.

والحجَّـة تعـرف بأنَّهـا قـول أو مشـهد طبيعـيٍّ أو إشـارة أو سـلوك غـير لفظـيٍّ، كـما قـد تكـون نصًّـا أو خطابًـا دينيًّـا أو سياسـيًّا، أو مثـلاً سـائرًا، أو حكمـة متداولـة[٧]، ويمثِّـل هـذا التحديـد توسـعة مهمَّـة لمفهـوم الحُجَّـة، إذ يخـرج بهـا مـن الحـصر في دائـرة القـول اللَّفظـيِّ إلى فضـاء أوسـع يشـمل مختلـف أنـماط التعبـير والمعنـى، سـواء أكانـت لفظيَّـة أم غـير لفظيَّـة، ورمزيَّـة أم سـلوكيَّة، وهـذا يتماشـى مـع الرؤيـة التداوليَّـة الحديثـة التـي تـرى أنَّ الحُجَّـة ليسـت مرتبطـة دائـمًا بالـكلام الصريـح، بـل يمكـن أن تُبنـى عـبر أي وسـيلة تواصليَّـة تحمـل دلالـة تؤثِّـر في المتلقِّـي.

وإذا كان الحجـاج عمليَّـة تكييـف للمبـادئ الحواريَّـة العامَّـة مـع متطلَّبـات وظيفـة خاصَّـة، وهـي وظيفـة إدارة الخـلاف فـإنَّ الحجَّـة آليَّـة تنظيميَّـة تواجـه القضايـا الخلافيَّـة، مـن خـلال وضعهـا في محيـط الخـلاف المفتـوح أو المضمـر أو المسقَـط، وإعطائهـا وظيفـة تداوليَّـة[٨]، أي إنَّهـا أداة حيويَّـة في إدارة الخلافـات داخـل الفضـاء الحـواريِّ، فالحجـاج عمليَّـة تكييـف مـرن لمبـادئ الحـوار حسـب متطلَّبـات الموقـف الخـلافيِّ، والحجَّـة تضبـط منطـق الاختـلاف، وتوجِّـه مسـارات الجـدال نحـو غايـات بنَّـاءة بـدل الانفـلات العشـوائيِّ للـصراع، وتتعـدُّد مسـتويات الحجَّـة بحسـب طبيعـة الخـلاف، فقـد تعمـل

٦ ابن منظور, لسان العرب, مادة(حجج).

٧ دقـاشي, منصـف. "الاسـتدلال الحجاجـي في الخطـاب الدينـي المعـاصر," إشراف بوجمعـة شـتوان (جامعـة مولـود معمـري – تيـزي وزو, ٢٠٢٠), ٣٤.

٨ مهاوي, قراءة في خطاب الرئيسين "المالكي والعبادي," ٩.

ضمن الخلاف الظاهر المعلن، وفي الخلاف غير المباشر الذي يُلمِّح إليه، وفي الخلاف المؤجَّل أو المسكوت عنه مؤقَّتًا، وهذا يعكس مرونة الحُجَّة التداوليَّة، وقدرتها على الاشتغال في مستويات مختلفة من التصريح والتلميح حسب مقتضيات المقام.

ب- السياق التخاطبي لخطاب الإمام عليه السلام:

خطاب الرسول صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام يُعدُّ من الوسائل المحوريَّة في نقل المفاهيم والقيم الدينيَّة، وقد تميَّز هذا الخطاب بقدرته الفائقة على التوليد المعرفيِّ والدلاليِّ، مع استيعابه لتنوُّع المخاطَبين واختلاف مقامات الخطاب، وتوظيفه الحُجَّة والعقل والأخلاق في بناء سلطة خطابيَّة تجمع بين البيان والإقناع والسموِّ الرمزيِّ.

- تنوّع المخاطَبين: (زنادقة، ملاحدة، أهل كلام، تلامذة):

تميَّز العصر الذي عاش فيه الإمام الصادق عليه السلام بتنوُّع غير مسبوق في أطياف المخاطَبين الذين واجههم في مجالسه وحواراته العلميَّة والعقديَّة، فقد برزت في تلك المرحلة تيارات فكريَّة متعدِّدة، كان من أبرزها الزنادقة الذين أنكروا الأديان والغيب، والملاحدة الذين جحدوا وجود الله عزَّ وجلَّ أو شكَّكوا فيه، وأهل الكلام الذين انشغلوا في مباحث العقائد بعقلانيَّة جدليَّة، مقدمين تصوُّرات فلسفيَّة ونظريَّة حول النبوُّة والمعاد، فضلًا عن جمهور واسع من التلامذة وطلبة العلم الذين قصدوا الإمام للاستزادة من علوم الدين والحديث والفقه والمعرفة العقليَّة.

وقد شكّل هذا التنوُّع تحدِّيًا حجاجيًّا خاصًّا للإمام عليه السلام، تطلَّب منه أن يوظِّف أدوات خطابيَّة دقيقة تراعي خلفيَّات المخاطبين ومرجعيَّاتهم الفكريَّة، وتنتقَّل بهم من مواطن الشبهة إلى مواضع اليقين بأساليب تقوم على الحوار العقليِّ والحجَّة المقنعة، مع الحفاظ على الجانب الأخلاقيِّ والرمزيِّ الذي يميِّز خطاب أهل البيت عليهم السلام، كما أنَّ هذا التعدُّد "دفع الإمام عليه السلام إلى تنويع أساليبه في الحوار، محقِّقًا بذلك سلطة حجاجيَّة فريدة"[٩].

٩ المظفر, الإمام الصادق عليه السلام، ج١, ١٥٤.

- مقام الحوار: (مناظرات، تعليم، ردّ الشبهات):

اتخذت حوارات الإمام الصادق ﷺ مقامات متعدِّدة بحسب طبيعة المخاطبين والقضايا المطروحة، فمن جهة، خاض الإمام ﷺ مناظرات فكريَّة مع الزنادقة والملاحدة وأهل الجدل العقليِّ، حيث كان يدير الحوار بعقلانيَّة دقيقة، مرتكزًا على الحجَّة العقليَّة والتفنيد المنهجيِّ لمقولات الخصم دون تعصُّب أو انفعال، ومن جهة أخرى، كان الإمام ﷺ يمارس التعليم والتربية العلميَّة مع تلامذته وطلابه، إذ يدرّبهم على طرائق التفكير السليم، ويزودهم بقواعد الاستدلال وضبط النظر، مؤسِّسًا بذلك مدرسة معرفيَّة رصينة في الفقه والعقيدة والكلام، ويمكن القول: إنَّ تلك "اللقاءات الحواريَّة كانت "منصَّة لبناء الفكر وتفنيد الشبهات، ليس فقط لسرد الآراء بل لقياس مدى ثبات الحجَّة"[١٠]، كما كان للإمام ﷺ دور بارز في ردّ الشبهات التي كانت تثار من مختلف التيارات، إذ كان يتصدَّى لها ببيان علميّ حجاجيّ يهدف إلى كشف التناقضات وبناء اليقين عند السائلين والمخاطبين، مع المحافظة على سمات الخطاب الأخلاقيِّ الرصين الذي يعكس مقام أهل البيت ﷺ العلميِّ والروحيِّ.

- سلطة الإمام الصادق ﷺ:

انبنتْ سلطة الإمام الصادق ﷺ الخطابيَّة على أربعة أسس متكاملة منحته موقع القيادة العلميَّة والفكريَّة في عصره، أوَّلها المعرفة؛ إذ كان الإمام ﷺ يمتلك سعة علميَّة شاملة في مجالات العقيدة، والفقه، والكلام، والعلوم الطبيعيَّة، وهذا ما جعل مجلسه مقصدًا للباحثين والمناظرين من شتَّى الاتِّجاهات، وثانيها الحُجَّة؛ فقد تميَّز خطابه بقدرته الفائقة على بناء الأدلَّة المحكمة وتفكيك شبهات الخصوم عبر الاستدلال العقليِّ الدقيق والأسئلة الاستبطانيَّة التي تقود المخاطَب إلى إعادة النظر في أفكاره ومواقفه، أمَّا الأساس الثالث فهو الأخلاق؛ إذ تجلَّت في حوارات الإمام

١٠ الشاكري, حسين . مناظرات الإمام الصادق ﷺ, ط١ (القاهرة-مصر: دار البلاغة للطباعة والنشر, ١٩٩٧), ٢٧.

ﷺ سمات الرفق، وضبط النفس، واحترام المخاطب، وقد أضفت هذه السمات على خطابه بُعدًا تربويًّا راقيًا يعكس سموَّ مدرسة أهل البيت ﷺ، وأخيرًا، يستند الإمام ﷺ إلى المقام الرمزيِّ الذي يحتلُّه بوصفه إمامًا معصومًا ووارثًا للعلم النبويِّ، وهو مقام يمنحه سلطة شرعيَّة وروحيَّة تضفي على حجَّته قوَّة إضافيَّة تتجاوز حدود الجدل العقليِّ لتلامس عمق الوجدان الدينيِّ عند المتلقِّين.

٣- التحليل التطبيقيّ:

أ- **مناظرة مع زنديق حول وجود الله** ﷻ: استعانَ الإمام الصادق ﷺ بأسلوب الاستبطان قائلاً: **"إنَّ الله في فطرة كلِّ إنسان، وإنكار وجوده هو إنكار لما يشعر به القلب والعقل"**[١١].

المخاطَب في هذا النص زنديق؛ أي شخص ينكر الألوهيَّة، ويعتمد على منطلقات عقليَّة خالصة أو ماديَّة في إنكار الغيب، والمقام مقام مناظرة فكريَّة مفتوحة؛ حيث يحاور الإمام ﷺ خصماً يعترض على أصل وجود الله ﷻ.

ووظيفة الخطاب تتجاوز مجرَّد تفنيد دعوى الخصم، فتعيد تأسيس مبدأ وجود الله ﷻ من نقطة داخليَّة في وعي الإنسان نفسه، أمَّا آليَّات الحجَّة في الخطاب فهي آليَّة الاستبطان الداخليِّ، إذ لا يبدأ الإمام ﷺ بعرض أدلَّة كونيَّة أو فلسفيَّة خارجيَّة، إنَّما ينفذ مباشرة إلى الوعي الباطني للخصم، ويراهن على الفطرة بوصفها معطى داخليًّا مشتركًا بين جميع البشر؛ ويجعل الحجَّة مقنعة، لأنَّها تستند إلى تجربة ذاتيَّة لا يستطيع الخصم إنكارها بسهولة دون أن يناقض ذاته.

ومن آليَّات الحجَّة الانتقال من البرهان إلى إلزام الخصم، فحين يُقرر الإمام ﷺ أنَّ إنكار وجود الله ﷻ هو إنكار لما يشعر به القلب والعقل، فإنَّه يحرج الخصم؛ لأنَّه يدفعه إلى الاعتراف بأنَّه يكذِّب ذاته ووعيه الداخليّ، وهذه التقنيَّة الحجاجيَّة

١١ الشاكري, ٣٣.

تخلق توترًا داخليًّا في موقف المخاطب.

ومن آليَّات الحجَّة أيضًا استعمال الحجَّة الفطريَّة بوصفها سلطة فوق النزاع العقليِّ، فالحجَّة الفطريَّة لا تحتاج إلى وسائط برهانيَّة معقَّدة؛ لأنَّها حجَّة قائمة بذاتها، وتجعل مقام الخطاب أكثر قوَّة أمام الخصوم الذين يميلون إلى الجدل الفلسفيِّ المطوَّل.

والفعل الكلاميُّ هو فعل الإمام عليه السلام، ويقوم على جملة من الأفعال التداوليَّة، مثل الإخبار المقرَّر: (إنَّ الله في فطرة كلِّ إنسان)، إذ يثبت معطى أوَّليًّا لا يحتاج برهانًا خارجيًّا، والنفي الضمنيّ لقول الخصم: (إنكار وجوده هو إنكار لما يشعر به القلب والعقل)، إذ يُظهر التناقض في دعوى الإنكار.

وقد وظَّف الإمام عليه السلام في بناء سلطة الحجَّة ثلاثة مصادر للقوَّة الحجاجيَّة، وهي المعرفة الفطريَّة المشتركة، وإلزام الخصم بمقتضى وعيه الذاتي، والهدوء الأخلاقي في إدارة الحوار.

ويُلحظ أنَّ الإمام عليه السلام يعتمد مبدأ اقتصاد الحجَّة التداوليّ؛ إذ يختصر المسافة الجدليَّة بالعودة إلى أصل الشعور الداخليِّ، متجاوزًا المسالك الجدليَّة الاستطراديَّة التي قد يستغلها الزنادقة عادة في تشتيت النقاش، والحجَّة الفطريَّة هنا تنتمي لما يُعرف بالحجج المؤسَّسة على المسلَّمات العقليَّة العامَّة، ويمكن القول: إنَّ الإمام الصادق عليه السلام يوظّف في هذا النموذج الحجَّة الفطريَّة بوصفها أداة تداوليَّة عالية الفاعليَّة في إدارة المناظرة مع المخالف، معتمدًا على قوَّة الاستبطان الداخليِّ في إقناع الخصم وإظهار تناقضه الذاتي، وقد جمع خطابه بين الإيجاز الحجاجيِّ والذكاء التداوليّ مع الحفاظ على البعد الأخلاقيِّ في إدارة الحوار.

ب- **ردّ الإمام عليه السلام على دهريٍّ (ابن أبي العوجاء)**، جاء ردُّ الإمام عليه السلام بالأسئلة المعكوسة، إذ قال: **"إذا كان كلُّ شيءٍ هو العدم، فكيف لك أن تكتب ما تقول وتقرأ كلامي؟!"**[١٢].

١٢ المظفر, الإمام الصادق عليه السلام، ج١, ١٦١.

المخاطَب هنا دهريّ (ابن أبي العوجاء)، وهو يمثِّل تيارًا ماديًّا يُنكر وجود الخالق، ويذهب إلى أنَّ الكون محض مادَّة أو عدم، والمقام مناظرة عقديَّة حجاجيَّة ذات طابع نقديٍّ مباشر، ووظيفة الخطاب تفكيك الأطروحة الماديَّة للخصم من داخلها عبر إلزامه بتناقض قوله.

وآليَّات الحجَّة تتمثَّل في الأسئلة المعكوسة، فالإمام ﷺ لا يرد بدليل مستقلٍّ، إنَّما يعكس قول الخصم عليه؛ أي يستعمل تقنيَّة قلب الدعوى إلى تناقضها الذاتي، فإذا كان كلُّ شيءٍ عدمًا -كما يدّعي الخصم- فإنَّ مجرَّد ممارسة الفعل المعرفيِّ، مثل الكتابة والقراءة والكلام، تنقض هذه الدعوى؛ لأنَّ هذه الأفعال تقتضي وجود الذات والموضوع والمعنى، وهي تنتمي جميعًا إلى عالم الوجود لا العدم.

يضاف إلى الأسئلة المعكوسة إحراج الخصم في بنية خطابه، فالإمام ﷺ يستخرج من ادِّعاء العدم لوازم غير منطقيَّة تجعل الخصم في موقع المفارقة بين قوله وفعله، وهذه تقنيَّة تداوليَّة، إذ يُظهر الإمام ﷺ أنَّ الخصم وهو ينطق بدعواه يمارس ضمنًا ما ينقضها.

ومن آليَّات الحجَّة إبطال الموقف من داخله دون الحاجة إلى البرهنة الخارجيَّة، وهذه الآليَّة تعدُّ من أرقى درجات الحجاج العقليِّ، إذ يتحوَّل كلام الخصم إلى مادَّة حجاجيَّة ضدَّه.

ومن حيث الفعل الكلامي تتمثَّل أفعال الكلام المركزيَّة في الاستفهام الإلزاميِّ (فكيف لك أن تكتب ما تقول وتقرأ كلامي؟) وهو استفهام غير حقيقيٍّ، يحمل في طيَّاته إدانة ضمنيَّة للطرح السابق، وفي النفي الضمنيِّ، إذ إنَّ الحجَّة ترفض دعوى العدم دون نطق صريح بالنفي، وتكتفي بإظهار مفارقته.

واعتمد الإمام ﷺ في بناء سلطة الحجَّة على سلطة العقل العمليِّ، فربط الحجَّة بواقع المخاطَب نفسه وأفعاله، وعلى سلطة الإلزام الذاتيِّ حين جعل الخصم يواجه تهافت منطقه بنفسه، وسلطة الاقتصاد الحجاجيِّ، وذلك من خلال الاقتصار على سؤال واحد موجَّه بعناية يغني عن سلسلة من الأدلَّة الطويلة.

واللافت أنَّ الحجاج نهضَ على نفي المعنى من خطاب الخصم عبر فعله نفسه؛ إذ يتحوَّل الخطاب الجدليُّ إلى اختبار للأداء التداوليِّ للخصم، ويبرهن أنَّ أقواله تفقد دلالتها حالما يمارس أيّ فعل إدراكي، وينتمي هذا النوع من الحجاج إلى ما يُعرف بحجَّة التناقض التداوليِّ الداخليِّ.

ج- **خطاب الإمام ﷺ لهشام بن الحكم**: أكَّد الإمام ﷺ على أهمِّيَّة العقل في التحقُّق، قائلًا لهشام: **"لا تقبل قولاً إلَّا بعد تدقيقه بالعقل، لأنَّ العقل هو ميزان الحقِّ والباطل"**[١٣].

المخاطَب هنا هو هشام بن الحكم، وهو من أبرز تلامذة الإمام ﷺ، ويُمثِّل نخبة المتلقِّين الذين يتلقُّون خطابًا تعليميًّا تأسيسيًّا، والمقام مقام تعليم وتربية فكريَّة ضمن إطار بناء المنهج الحجاجيِّ للطالب، ووظيفة الخطاب ترسيخ المنهجيَّة العقليَّة في التحقُّق من الأقوال، وتأسيس قاعدة معرفيَّة لضبط التفكير النقديِّ عند الطالب.

وتتنوَّع آليَّات الحجَّة في الخطاب فهناك آليَّة التأسيس المنهجيِّ، لأنَّ الإمام ﷺ هنا لا يعرض حجَّة على قضيَّة معيَّنة، إنَّما يضع قاعدة عامَّة في التفكير تقوم على أولويَّة العقل في التحقُّق، فالحجَّة ليست موجَّهة لإثبات فكرة بذاتها، بقدر ما هي موجَّهة لإقامة مرجعيَّة عقليَّة تحكم الأفكار كافَّة.

وآليَّة التوجيه المعرفيِّ الأخلاقيِّ، لأنَّ الإمام ﷺ لا يكتفي بتقرير أولويَّة العقل، إنَّما يعمد إلى ربطها بالمسؤوليَّة الفرديَّة في تحرِّي الحقيقة، أي إنَّ قبول القول مشروط بمراجعته عقليًّا، وهذا يشكِّل قاعدة حجاجيَّة ضابطة تحصِّن المتلقِّي من الانقياد العاطفيِّ أو التقليد الأعمى، ولوحظ أيضًا اعتماد الإمام ﷺ مبدأ الميزان العقليِّ، فالحجَّة المركزيَّة هي أنَّ العقل هو الميزان الفاصل بين الحقِّ والباطل؛ وهو تعبير عن منهج حجاجيٍّ يقوم على مبدأ التقويم النقديِّ المستمرّ.

١٣ المظفر, ١٦٣.

وتتمثَّل أفعال الكلام المركزيَّة في الأمر التوجيهيِّ: (لا تقبل قولاً إلَّا بعد تدقيقه بالعقل)، وهو أمر تعليميٌّ لا يحمل الإلزام القهريَّ إنَّما يوجَّه نحو ممارسة التفكير النقديِّ، وفي التقرير البرهانيِّ: (لأنَّ العقل هو ميزان الحقِّ والباطل)، وهو تقرير قاعدة عامَّة تضفي مشروعيَّة معرفيَّة على المعيار العقليِّ.

ولبناء سلطة الحجَّة عمدَ الإمام ﷺ في هذا النموذج إلى تفعيل سلطة التعليم العقليِّ، بإرشاد المتلقِّي إلى المنهج السليم، وسلطة الاستقلال الفكريِّ عبر تحريض المتلقِّي على امتلاك أدوات النقد الذاتيِّ، وسلطة الحجَّة الوقائيَّة وذلك من خلال تزويد المخاطَب بمرجعيَّة فكريَّة تقيه الوقوع في مغالطات الفكر والخصومات الحجاجيَّة الفاسدة.

وممَّا هو لافت أنَّ البعد التداوليَّ العام للحجاج هنا ليس تفاعليًّا مع خصم كما في النماذج السابقة، بل هو تأسيس لبنية عقليَّة تداوليَّة مستقبليَّة في ذهن التلميذ؛ فهو حجاج تأسيسيٌّ يمكِّن المخاطب من إدارة خلافاته الفكريَّة القادمة بكفاءة، وهذا النموذج يمكن أن نُطلق عليه (الحجاج البنائيّ)، أي تنمية قدرة المتلقِّي على إنتاج الحجَّة وتقويمها لاحقًا.

ويمكن القول: إنَّ الإمام الصادق ﷺ مارس في هذا النموذج وظيفة الحجَّة التعليميَّة التداوليَّة، فأسَّس لمرجعيَّة عقليَّة تضبط عمليَّة قبول الأقوال من خلال معيار التدقيق العقليِّ، بما يمنح التلميذ أدوات التفكير النقديِّ الذاتيِّ، ويؤسِّس لديه جهاز مناعة فكريَّة يحصنه من الوقوع في مغالطات الخصوم في المناظرات الحجاجيَّة المستقبليَّة.

د- مناظرة في التوحيد – مع زنديق حول صفة الصانع:

- قال هشام بن الحكم عن الإمام جعفر الصادق ﷺ:

"ما الدليل على أنَّ الله ﷻ صانع؟ قال: وجود الأفاعيل التي دلَّت على أن صانعها صنعها. ألا ترى أنَّك إذا نظرت إلى بناء مشيد مبْنًى علمت أنَّ له بانيًا؟ فالصانع

أثبَتناه لوجود المصنوعين"[١٤].

تندرج هذه المناظرة ضمن مقام إثبات عقائديٍّ مُوجَّه إلى مُخاطبٍ منكِرٍ، وهذا المقام يحتِّم على الإمام ﷺ أن يتبنَّى أسلوبًا برهانيًّا عقلانيًّا يستجيب لطبيعة الخصم الرافض للمعطى الغيبيِّ، ويشترط الدليل التجريبيَّ أو العقليَّ، ويفترض هذا المقام وجود مخاطب عقلانيٍّ مادِّيٍّ، لا يؤمن إلَّا بما تدركه الحواس، لذلك اختار الإمام ﷺ الانتقال من الحواسّ إلى بناء عقلانيٍّ مركَّب، يعيد بناء الإيمان استنادًا إلى (أثر الصانع)، كمدخل حجاجيٍّ يُمكِّن من تأسيس الحضور الإلهيِّ في الوعي، لا في الحسِّ.

ثانيًا: آليَّة الحُجَّة العقليَّة – من الفعل إلى الفاعل يتموضع خطاب الإمام ﷺ هنا ضمن ما يُعرف في نظريَّة الحجاج بالاستدلال بالعلَّة على المعلول[١٥]، إذ يجعل الإمام ﷺ (وجود الأفاعيل) دليلًا على وجود الفاعل (الصانع)، وهو ما يمثِّل بنية عقليَّة استنتاجيَّة تقوم على ربط الدالّ بالمدلول، والأثر بالمؤثِّر، وهذا النمط من الحجاج يُعدُّ من الحُجج العقليَّة الكونيَّة التي تستثمر العقل الفطريَّ، وتُفعِّل آليَّات الملاحظة اليوميَّة لبناء نتيجة كبرى ذات طابع ميتافيزيقيّ.

وتحضر الصورة البلاغيَّة بوصفها استراتيجيَّة عقلانيَّة، إذ يستخدم الإمام ﷺ تشبيهًا تمثيليًّا هو: (ألا ترى أنَّك إذا نظرت إلى بناء مشيد...)، وهذا التشبيه أداة تداوليَّة، تنهض بمهمَّة تبسيط المعنى المجرَّد عبر تقريب الغيب من عالم الواقع، وتأليف مشترك عقليٍّ مع الخصم بتوظيف مثال من الحياة اليوميَّة عبر لجوء الإمام ﷺ إلى تفعيل سلطة المثال التمثيليِّ، وهو ما يُعدُّ من أرسخ أدوات البرهان العقليِّ في الحجاج القديم والحديث.

١٤ الشاكري, مناظرات الإمام الصادق ﷺ, ٣٢_ ٣٣.

١٥ زيدان, شيماء عبد الرحمن "، الاستدلال بالعلة والمعلول عند المناطقة والأصوليين," حولية كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة ١, المجلد١, العدد ٣٧, ٨٤ : (٢٠١٣)

ويلحظ التدرُّج من المحسوس إلى المعقول، فالإمام الصادق ﷺ يمارس هنا ما يمكن تسميته بالاستدلال العقليِّ المركَّب، فهو يبني النتيجة عبر سلسلة من الانتقالات، تبدأ من الأبصار (رؤية البناء) وصولًا إلى العقول (الاستنتاج بوجود الباني)، ثمَّ إلى القلوب بلحاظها مركز الفطرة والإدراك الداخليّ، وهذا التدرُّج يُجسِّد بلاغة الانسجام التداوليِّ بين مستويات الإدراك المختلفة، ويعكس حرص الإمام ﷺ على إقناع المخاطب بالحجَّة البرهان.

ويمكن القول: إنَّ آليَّات سلطة الحُجَّة في هذا الخطاب تمثَّلت بالبرهان العقليِّ الكونيِّ عبر اعتماد الحُجَّة من الأثر إلى المؤثِّر، والتمثيل التداوليُّ بهدف تقريب المجرَّد بالمحسوس، والاقتصاد الحجاجيّ، فاستعمال مثال واحد غني بالبنية المنطقيَّة يغني عن تفصيل فلسفيٍّ طويل، واستثمار المشترك العقليِّ، لأنَّ الإمام ﷺ بنى على مسلَّمات لا يملك الخصم نفيها دون التورُّط في التناقض وغياب القهر وظهور الحوار، فالخطاب ينهض على الإقناع لا الإلزام، وعلى التوجيه لا الإخضاع.

هـ- مناظرة مع زنديق في إثبات صفات الله ﷻ – "الرؤية" و"صفات الأفعال":

- روي عن الإمام الصادق ﷺ ما يلي[١٦]:

- الزنديق: كيف يعبد الله الخلق ولم يروه؟

- الإمام ﷺ: **"رأته القلوب بنور الإيمان، وأثبتته العقول بيقظتها إثبات العيان، وأبصرته الأبصار بما رأته من حسن التركيب وإحكام التأليف، ثمَّ الرسل وآياتها، والكتب ومحكماتها، واقتصرت العلماء ما رأت من عظمته دون رؤيته"**.

- الزنديق: أليس هو قادرًا أن يظهر لهم حتَّى يروه ويعبد على يقين؟

- الإمام ﷺ: **"ليس للمحال جواب"** أي إنَّ رؤية الله ﷻ غير الممكنة لا تنفي قدرته، ولكن هذه الرؤية باقية في نطاق المستحيل العقليِّ.

١٦ الشاكري, مناظرات الإمام الصادق ﷺ, ١٥٨_ ١٥٩.

يتبنَّى الزنديق اعتراضًا ظاهريًّا معقولًا: لماذا يُعبد إله لم يُرَ؟

وهذا سؤال يرتكز على مغالطة سهليَّة، وهي أنَّ اشتراط شرط مستحيل لليقين، أي أن يُرى الله عز وجل حتَّى يُعبد، مع أنَّ الرؤية لله سبحانه تعالى ممتنعة عقلاً، والإمام الصادق عليه السلام لا يرد على السؤال من داخل منطقه فقط، بل يرتقي به إلى مستوى أعمق، محوّلًا الاعتراض إلى بيان فلسفيٍّ عن العلاقة بين الإدراك القلبيِّ بنور الإيمان، والإدراك العقليِّ الاستدلاليِّ، والمشاهدة الظاهريَّة لآثار الصانع في الكون.

وقوله: (أليس هو قادرًا أن يظهر لهم حتَّى يُرى ويُعبد على يقين؟) سؤال يتضمَّن مغالطة مبطَّنة، لأنَّه يشترط أن تكون الرؤية شرطًا ضروريًّا للعبادة، ويُحمِّل القدرة الإلهيَّة ما هو محال عقليًّا، أي أن يُرى الله عز وجل كما تُرى المخلوقات.

وقول الإمام عليه السلام: (ليس للمحال جواب) يتضمَّن استعمال الإمام عليه السلام لآليَّة الحجاج بالنفي العقليِّ، وهو نمط من الحجاج التعجيزيِّ المضادّ للمغالطة، فهو لا يقصد (أنَّ الله لا يقدر)، بل يبيِّن أنَّ المحال بذاته ليس متعلَّقًا للقدرة، إذ إنَّ القدرة لا تتعلَّق بالمحال لأنَّه ليس شيئًا في نفسه، بل تصوُّر فاسد، وبهذا يتجاوز الإمام عليه السلام فخَّ السؤال.

وفي قوله عليه السلام: (رأته القلوب بنور الإيمان... وأثبتته العقول بيقظتها... وأبصرته الأبصار بما رأته من حسن التركيب...(يستعمل الإمام عليه السلام سلسلة من الحواسّ غير الحسِّيَّة، يُقابل بها التصوُّر الساذج للرؤية البصريَّة، وهذا البناء الحجاجيِّ يُبرز أنَّ المعرفة بالله عز وجل ليست مرهونة بالرؤية الحسِّيَّة، بل تقع ضمن أنماط أرقى من الإدراك، وهذا يتَّفق مع بلاغة القرآن الكريم: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي﴾(الأعراف: ١٤٣)، ومع المنطق العقليِّ الإسلاميِّ في نفي التشبيه والتجسيم.

واللافت أنَّ الإمام عليه السلام يدمج بين النفي العقليِّ (ليس للمحال جواب)،

والإثبات البرهانيّ (أدلَّة القلوب والعقول والعالم)، في بنية تداوليَّة تراعي المقام، فهو يخاطب زنديقًا، لا مؤمنًا، فيؤسِّس الإقناع على معايير عقليَّة وتجريبيَّة، ويكشف هذا النموذج عن براعة الإمام الصادق ﷺ في إدارة الحجاج الفلسفيِّ، وقدرته على تحويل الاعتراض الجدليِّ إلى بناء معرفيٍّ، يتجاوز المغالطة إلى إعادة بناء نظام الإدراك، فلا تُطلب الرؤية الحسِّيَّة لما لا يُدرَك بالحواسِّ، ولا يُقاس المطلق بالمحدود، فالله ﷻ يُعرف بأثره، لا بشكله، ويُدرك بالعقل والقلب، لا بالعين المجرَّدة.

وبهذا يبرهن التحليل التطبيقيُّ أنَّ الإمام الصادق ﷺ وظَّف في نماذج حجاجيَّة متباينة، غير أنَّها متكاملة، فآليَّة الاستبطان الداخليُّ أرست مبدأ الحُجَّة المبنيَّة على الفطرة المشتركة، بينما الأسئلة كشفت تناقضات الخصم دون برهان خارجي مُعقَّد، أمَّا في السياق التعليميِّ فقد أسَّس المنهج العقليّ عبر قاعدة التدقيق بالعقل وربطها بالمسؤوليَّة الفرديَّة، وما يجمع هذه النماذج هو الاقتصاد التداوليُّ للحُجَّة، والذكاء الصياغيُّ الذي يدمج بين الإيجاز، والإلزام العمليّ، والبعد الأخلاقي، ليحقِّق الخطاب الحجاجيُّ لدى الإمام الصادق ﷺ أعلى درجات الفاعليَّة في تثبيت المفاهيم وبناء وعيٍّ نقديٍّ راسخ.

٤- آليَّات سلطة الحُجَّة في الخطاب: تُعدُّ سلطة الحُجَّة من أهمِّ الآليَّات التي تمنح الخطاب قوَّته الإقناعيَّة وقدرته على التأثير في المتلقِّي، من خلال توظيفها ضمن بنية الخطاب وسياقه التداوليّ، ولعلَّ من أبرز النماذج التي تجسِّد هذا النوع من السلطة، خطابات الإمام الصادق ﷺ، التي اتَّسمت بقدرة فريدة على استمالة العقول والقلوب معًا، وإنَّ جوهر سلطة الحُجَّة في خطاب الإمام الصادق ﷺ يقوم على استثمار العقل الفطريِّ بوصفه مرجعيَّة مشتركة بين جميع المخاطَبين، بصرف النظر عن خلفيَّاتهم المعرفيَّة أو الفكريَّة، فالإمام لا ينطلق من مسلَّمات معقَّدة أو براهين فلسفيَّة عسيرة الفهم على المتلقِّي، إنَّما يستند إلى بدهيَّات عقليَّة يتساوى فيها

الجميع، وهو ما يمنح حججه طابعًا كلِّيًّا وعابرًا للطبقات الفكريَّة، و"الاعتماد على العقل الفطريِّ هو ما يجعل حجج الإمام عليه السلام تلقى قبولًا من مختلف المستويات الثقافيَّة والفكريَّة"[١٧]، فالعقل الفطريُّ يصبح هنا بمنزلة الأرضيَّة المشتركة التي ينطلق منها الحوار، لذا يحدّ من إمكانات الرفض أو الممانعة من قِبل الطرف الآخر، إذ يجد نفسه مضطرًا إلى الإقرار بما ينسجم مع بداهته العقليَّة.

والإمام الصادق عليه السلام اعتمد أسلوبًا حواريًّا يتميَّز بالذكاء الحجاجيِّ، من خلال توظيف الأسئلة بوصفها أداة لتفكيك الخطاب المضادّ وكشف تناقضاته الداخليَّة، فبدلاً من الدخول في سجالات مباشرة أو فرض الاستنتاجات الجاهزة، كان الإمام عليه السلام يدير الحوار بأسلوب الاستفهام الموجَّه، الذي يُلزم الخصم بالتفكير في مواقفه وإعادة النظر في مقدِّماته، وهو أسلوب ذكيٌّ في تفكيك الخطاب، فالأسئلة كانت "موجَّهة بعناية لتضع الخصم في موقف الدفاع، ممَّا يزيد من سلطة الإمام عليه السلام الحجاجيَّة"[١٨]، وهكذا، تتحوَّل الأسئلة إلى أداة جوهريَّة في إدارة الجدل، إذ تُربك الخصم وتجبره على مواجهة هشاشة منطقه الذاتيِّ، وتعزِّز موقع الإمام بوصفه صاحب الحُجَّة الأقوى، وإن اجتماع هاتين الآليتين -توظيف العقل الفطريّ واعتماد الأسئلة الكاشفة- يشكِّل البنية العميقة لسلطة الحُجَّة في خطاب الإمام الصادق عليه السلام، فهذه السلطة لا تقوم على القهر أو الهيمنة القسريَّة أو الإكراه، بل على الإقناع الهادئ الذي يجعل المتلقِّي شريكًا في بناء البرهان، ويدفعه طواعيَّة إلى تبنِّي النتيجة النهائيَّة للخطاب، و"الإمام عليه السلام لم يستخدم الحُجّة لإثبات التفوُّق، بل كمنهج لبناء فكر متين وعقلانيّ عند الآخرين"[١٩]، وبهذا يضع الإمام عليه السلام سلطة الحجَّة في موضعها التداوليِّ الصحيح، فهي أداة تفاهم لا أداة انتصار، ومن المعلوم أنَّ سلطة الحُجَّة

١٧ المظفر, الإمام الصادق عليه السلام، ج١, ١٥٦.
١٨ المظفر, ١٥٧.
١٩ المظفر, ١٦٥.

تختلف عن السلطة القهريَّة في الخطاب التداوليِّ؛ فالأولى تستند إلى احترام المتلقِّي وإشراكه في إنتاج المعنى، بينما الثانية تسعى إلى فرض النتائج بغض النظر عن قناعة الطرف الآخر، والإمام الصادق، اختار المسار الأوَّل، إذ جعل الحُجَّة أداة لإشراك العقول وتحفيز التفكير النقديِّ، لا مجرَّد سلاح لإفحام الخصم وإظهار تفوُّقه عليه، وهذا كلُّه يؤكِّد السمة التربويَّة العميقة لخطابه، إذ يصبح الجدل وسيلة لإحداث تحوُّل داخليٍّ في بنية تفكير المخاطَب، عبر دعوته للانخراط في حوار عقلانيٍّ يقوم على أسس منطقيَّة متينة.

ومن الأدلَّة على اتِّساع أدوات سلطة الحجَّة عند الإمام ﷺ، استعماله آليَّة الاستدلال من الأثر إلى المؤثِّر بوصفها حُجَّة عقليَّة فطريَّة لا تحتاج إلى توسُّط فلسفيٍّ، إذ استُثمر التمثيل التداوليُّ لتقريب المجرَّد بالمحسوس، كما أظهر الإمام ﷺ قدرة لافتة على تفكيك المغالطة بتقنيَّة النفي العقليِّ (ليس للمحال جواب)، وهي حُجَّة دفاعيَّة تُعيد ضبط السؤال داخل حدوده المنطقيَّة، إلى جانب ذلك، تمَّ دمج مدارج الإدراك المتعدِّدة (القلب، العقل، البصر) في منظومة خطابيَّة تدمج بين التدرُّج المعرفيِّ والبناء الفطريِّ، وتعكس براعة في تأسيس سلطة حجاجيَّة بنائيَّة تتجاوز المجادلة إلى إعادة تشكيل الوعيّ.

وإنَّ هذا الوعيَّ التداوليَّ في إدارة الحُجَّة يعكس مكانة الإمام ﷺ بوصفه عالم دين، ومربِّيًا للعقل، يدير الخطاب ليبني فكرًا متماسكًا لدى الجميع، لا ليظفر بخصومة آنيَّة، وهذه ميزة جوهريَّة في الخطابات الكبرى التي تستهدف البناء لا الهدم، والإقناع لا الإذعان.

٥- الخاتمة:

سعى هذا البحث إلى مقاربة خطاب الإمام الصادق عليه السلام من زاوية تداوليَّة حجاجيَّة تكشف عن الأبعاد المعرفية والمنهجية العميقة التي تنتظم خطابه، فمن خلال تتبُّع آليَّات الحُجَّة في ضوء التداوليَّة، اتَّضح أنَّ الخطاب الحجاجيَّ عند الإمام عليه السلام يتجاوز الطابع الجدليَّ التقليديَّ الذي يركِّز على إفحام الخصم أو إثبات التفوُّق الخطابيِّ، ليتحوَّل إلى مشروع معرفيٍّ وتربويٍّ يهدف إلى بناء الوعي وترسيخ الفكر المنهجيَّ عند المخاطب.

وقد بيَّن القسم التطبيقيُّ بوضوح كيف تمكَّن الإمام الصادق عليه السلام من ممارسة سلطة الحُجَّة بوعي تداوليٍّ متقن؛ إذ أدارت الأسئلة المعكوسة والملزمة مواقف الحوار بمنهجيَّة دقيقة تكشف عن هشاشة منطق الخصم، كما في حواره مع ابن أبي العوجاء، الذي بيَّن فيه الإمام عليه السلام ببراعة أنَّ مجرَّد قول الخصم وكتابته يناقضان زعمه بالعدم.

وإنَّ القراءة النقديَّة لهذا الخطاب الحجاجيِّ تبرز التوازن الفريد بين الإقناع والتربية؛ فالإمام عليه السلام لا ينطلق من منطق الخصومة أو العناد أو الجدل أو إثبات الذات، بل من منطق البناء الفكريِّ السليم، إذ يُنتج الحُجَّة لتكون أداة لإعادة تنظيم الفكر لدى المتلقِّي.

وبهذا تتجاوز سلطة الحُجَّة إطار الصراع الكلاميِّ إلى أفق معرفيٍّ أخلاقيٍّ يمارس سلطة التربية العقليَّة والتحصين الفكريِّ، وهو ما يمنح خطابه صفة الاستمراريَّة والراهنيَّة في كلِّ سياق معرفيٍّ معاصر، وبهذا يُثبت خطاب الإمام الصادق عليه السلام أنَّه نموذجٌ متقدِّمٌ في فنِّ الحجاج التداوليِّ، إذ تندمج البلاغة بالعقل، والمنطق بالتربية، في منظومة خطابيَّة تحتفظ بقوَّتها المعرفيَّة والأخلاقيَّة معًا.

وإنَّ ما يجعل هذا الخطاب استثنائيًّا انسجامه العميق مع مقتضيات المقام، وتفرُّده في الجمع بين التربية العقليَّة والإقناع الأخلاقيِّ، وإذا كانت النماذج الثلاثة الأولى

قد أظهرت مساحات متنوِّعة من المقامات (مناظرة، تعليم، تفكيك شبهة)، فإنَّ النموذجين الأخيرين وسَّعا هذه المساحات بإبراز الحُجَّة بوصفها دفاعًا عقلانيًّا عن صفات الله ﷻ وإدراكه، مع توظيف استدلالات فطريَّة مركَّبة بما يؤسِّس لفهم عميق لسلطة الحُجَّة بوصفها أداة معرفيَّة وتربويَّة تبني الوعي ولا تُجبره، وتحترم المتلقِّي بدل أن تُخضعه.

المصادر

القرآن الكريم

أعراب, حبيب. "الحجاج والاستدلال الحجاجي." عالم الفكر, العدد١, المجلد٣٠ (٢٠٠١).

ابن منظور. لسان العرب. ط٣. بيروت: دار صادر, ١٤١٤هـ.

الحنوش, أنوار إبراهيم عزيز. "الحِجاج: بين الأسس الأرسطية والمنطلقات الغربية." المجلة العربية للعلوم الإنسانية, ٢٠٢٥.

الشاكري, حسين. مناظرات الإمام الصادق ﷺ. ط١. القاهرة-مصر: دار البلاغة للطباعة والنشر, ١٩٩٧.

المظفر, محمد حسين. الإمام الصادق ﷺ، ج١. ط١. بيروت-لبنان: مؤسسة النشر الإسلامي, ١٩٩٦.

دقاشي, منصف. "الاستدلال الحجاجي في الخطاب الديني المعاصر." بإشراف بوجمعة شتوان. جامعة مولود معمري - تيزي وزو, ٢٠٢٠.

زيدان, شيماء عبد الرحمن. "، الاستدلال بالعلة والمعلول عند المناطقة والأصوليين." حولية كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة, المجلد١ العدد ٣٧ (٢٠١٣).

مهاوي, محمد حدين. قراءة في خطاب الرئيسين "المالكي والعبادي." كُلِيَّة الإمام الكاظم ﷺ للعلوم الإسلاميَّة الجامعة, د.ت.

References

The Glorious Qur'an

A'rab, Habib. "Al-Hijaj wa Al-Istidlal Al-Hujaji." 'Alam Al-Fikr, Al-'Adad 1, Al-Mujallad 30.(2001)

Ibn Manzur. Lisan Al-'Arab. T. 3. Bayrut: Dar Sadir, 1414 H.

Al-Hanoush, Anwar Ibrahim 'Aziz. "Al-Hijaj: bayna Al-Usus Al-Aristiyya wa Al-Muntalaqat Al-Gharbiyya." Al-Majalla Al-'Arabiyya lil-'Ulum Al-Insaniyya, 2025.

Al-Shakiri, Husayn. Munazarat Al-Imam Al-Sadiq (as). T. 1. Al-Qahira-Misr: Dar Al-Balagha lil-Tiba'a wa Al-Nashr, 1997.

Al-Muzaffar, Muhammad Husayn. Al-Imam Al-Sadiq (as), J. 1. T. 1. Bayrut-Lubnan: Mu'assasat Al-Nashr Al-Islami, 1996. Daqqashi, Munsif. "Al-Istidlal Al-Hujaji fi Al-Khitab Al-Dini Al-Mu'asir." Bi-Ishruf Bujuma' Shtawan. Jami'at Mawlud Ma'muri — Tizi Wazu, 2020.

Zaydan, Shayma' 'Abd Al-Rahman. "Al-Istidlal bil-'Illa wa Al-Ma'lul 'ind Al-Manatiqa wa Al-Usuliyyin." Hawliyyat Kulliyyat Al-Da'wa Al-Islamiyya bil-Qahira, Al-Mujallad 1, Al-'Adad 37.(2013)

Mahawi, Muhammad Hadayn. Qira'a fi Khitab Al-Ra'isayn "Al-Maliki wa Al-'Abadi." Kulliyyat Al-Imam Al-Kadhim (as) lil-'Ulum Al-Islamiyya Al-Jami'a, d.t.